عثرت به وعثرت عليه

للأســـتاذ محمد مندور

لم يكن فى عزمي أن أرد على زكريا أفندى إبراهيم لأن المناقشة لم تكن بينى وبينه ، وإنما فصلت لأننى رأيته قد أثار مسألتين حببت فى إيضاحهما فائدة لعامة القراء وقد اعتمدت فى تأييد استعمالى « لعثرت ب » على مبادىء لغوية عامة لم يقتصر العلم بها على الباحثين فى علم اللسان بل سبقهم إليها ولحقهم الفلاسفة وكافة المفكرين . فاللغات كما قلت مجازات ميتة فى فى الكثير من مفرداتها ، فنحن عندما نقول بالفرنسية مثلاً abimer بمعنى « أتلف » نستعمل مجازاً ميتاً لم يعد يحس به أحد ، وذلك لأن معنى هذا الفعل الاشتقاقى فى اللغة الفرنسية هو « يلقى فى هاوية » (هاوية : abime) ، وكذلك الأمر فى اللغة العربية ، فالرفعة والسمو والانحطاط مثلاً كل هذه الألفاظ كانت معانيها الأولى حسية، ثم ماتت تلك المعانى وأصبحنا نستعمل تلك الألفاظ فى الدلالة على الصفات المعنوية المعروفة ، وهكذا مما لا حصر له فى كافة اللغات . ولقد كانت هذه الحقيقة من الأسس التى بنى عليها الفلاسفة الإنجليز أصحاب المذهب الحسى فى المعرفة ومنابعها مذهبهم ، إذ لاحظوا أن معظم ألفاظ اللغة كانت فى الأصل تدل على معان تدركها الحواس ثم انتقلت إلى المعنويات

وعلى هذا يتضح لنا أن عثر فى معناها الأصلى لم تكن تفيد الاطلاع مصادفة أو من بحث فى شىء ، وإنما أفادت هذين المعنيين تجوزاً ، وحروف الجر فى كافة اللغات من أدوات نقل المعنى ، ومن ثم فعندما نقول عثرب ، أو عثر على ، يجب أن نحدد الفارقات بين الاستعمالين تبعاً لدلالة حرفى جر ومنحاهما فى نقل المعنى . والذى لا أشك فيه أننا نقول « عثر الجواد بحجر » ونكون بذلك فى حدود المعنى الحقيقى بحيث إذا تجوزنا أو قلنا عثرت بفكرة نكون أقرب ما يكون إلى مضمون المعنى الحقيقى أيضاً . ومن الواضح أن فى ذلك المعنى ما يدل على المصادفة لأن الجواد لا يبحث عن حجر ليعثر به . وأما عندما نقول عثرت على فكرة ، فالحس اللغوى يبصرنا بأننا هنا قد بعدنا عن المعنى الحقيقى وما يحمل من دلالة المصادفة لأنه على الأقل يتضمن العثور بالفكرة ثم الوقوع عليها ، وليس من الضرورى أن نعثر بالشىء ثم نقع عليه إذ قد يفلت منا ؛ فالعثور على الشىء فيه معنى إيجابى هو ما أحسست ولا أزال أحس فيه بمدلول البحث

وأيا ما يكون الأمر فأنا بعد لا أرى مانعاً ما دام المجاز قد مات فى عثر وأصبح الفعل يدل على الاطلاع فى الاستعمالين من من أن نقصد « بعثر ب » إلى الاطلاع مصادفة و « عثر على » إلى الاطلاع عن بحث . واللغة ، كما قلت ، كائن حى من الواجب أن نغذيه باستمرار بأن ننوع من طرق الأداء فيها كما نحدد من تلك الطرق على نحو ما نشاهد فى لغات الأمم المتحضرة كلها

هذا رأيى أقف عنده لأن الأصول العامة تكفى لتأييده . ومع ذلك فقد حمل إلىّ البريد هذا الصباح خطاباً من صديقى عبد الرحمن بدوى الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ؛ وها أنا أنسخ لكم خطابه . قال بعد المقدمة :

« أود أن ألفت نظرك إلى نقط لعل بعدك عن المصادر هو الذى حال بينك وبين التنبه إليها وفيها تأييد لما تقوله فيما يتصل بالتعبير « عثر به »

وأولى هذه النقط خيانة زكريا إبراهيم (وهو من تلاميذى الآن بالسنة الثالثة قسم الفلسفة) لنص (لين) إذ هو بتمامه يؤيد استعمال « عثر به » بمعنى اطلع عليه فهو يقول ما نصه :

عثر به : knew It; accidentally, or without seeking; (T. A)

[(وأشرس see an ex. voce) وعثر به nd so]

معجم لين Lane ص ١٩٥٢ عمود (١) س ٣ ، ٤ من أسفل .

وتحت مادة « أشرس » يذكر الشاهد الثانى : عَثَر بأشرس الدهر (أمثال الميدانى المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣١٠ جـ ١ ص ٣١٣ س ١ ـ ٢)

وثانى هذه النقط أن « عثر على » بمعنى الاطلاع مصادفة وبلا طلب ليس متفقاً عليها بين اللغويين والمفسرين . فالذى يوردها صراحة من بين اللغويين الراغب الأصفهانى فى « مفرداته » « تاج العروس » للزبيدى (وهو الذى يشير إليه لين هنا فى الإشارة T. A) وغالب المفسرين عند كلامهم على الآية « وكذلك أعثرنا عليهم » والآية « فإذا عثر على أنهما استحقا إثما » يقولون

إنها لا تدل على الاطلاع مصادفة . فالقرطبي يقول : (الجامع لأحكام القرآن ج ٦ ص ٣٥٨ طبع دار الكتب سنة ١٩٣٨) « ومنه قوله تعالى : (وكذلك أعثرنا عليهم) لأنهم كانوا يطلبونهم وقد خفي عليهم موضعهم » أي الناس الذين كانوا يبحثون عن أهل الكهف . ويرجح رأي هؤلاء أن الآية « فإذا عثر على أنهما استحقا إثما » يقصد منها كما يقول الرازي (ج ٣ ص ٤٧٨ المطبعة العامرة الشرقية . الطبعة الأولى سنة ١٣٠٨ بالقاهرة) . « فإن حصل العثور والوقوف على أنهما (أي الأمينين على الوصية التي يوصي بها من بات بأرض ليس فيها مسلم) أتيا بخيانة واستحقا الإثم بسبب اليمين الكاذبة ، أي أن المعنى هو « فإن وجد أنهما ... » وإلا فلا يصح حكم الآية إن وجد بعد التحقيق أنهما خانا . وهذا ما لا يمكن أن يكون القرآن قد قصده . وفيما يتصل بآية أهل الكهف « وكذلك أعثرنا عليهم » فالقصد هنا من الله واضح لأنه قصد أن يدل بعض الناس على وجود أهل الكهف فليس هنا مصادفة إذن .

ويؤيد كلامك أو شعورك بوجود معنى المصادفة في «عثر به» أكثر مما هو في « عثر عليه » أن الأصل في « عثر عليه » هو « أن العاثر إنما يعثر بشيء كان لا يراه ، فلما عثر به اطلع عليه ونظر ما هو ، فقيل لكل من اطلع على أمر كان خفيًا عليه قد عثر عليه » (الرازي في الموضع نفسه) ، فعثر به هي الأصل ، وعثر عليه هي المجاز ؛ وعثر فيها معنى المصادفة من أصلها فما هو أقرب إلى الأصل وهو عثر به يكون معنى المصادفة فيه أقوى

ونقطة ثالثة هي أنك لست أول من استعملها بهذا المعنى فقد وجدت أنها استعملت مراراً من قبل . أذكر منها الآن ما يلي إلى جانب ما أورده لين في المثل : « عثر بأشرس الدهر »

(ا) استعملها ابن هانئ الأندلسي المتوفى سنة ٣٦٢ هـ حين قال :

منعوك من سنة الكرى وسروا فلو
عثروا بطيفٍ طارقٍ ظنـــوك

(راجع ديوان ابن هانئ تصحيح الدكتور زاهد علي . مطبعة المعارف سنة ١٣٥٢ هـ ص ٥٣١)

(ب) واستعملها ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ حين قال : « عثر بمجمعهم اتفاقاً » (تاريخ ابن خلدون طبعة دي سلان . الجزائر سنة ١٨٤٧ ج ٢ ص ٣٤٢ س ١٠ — وراجع دوزي : ملحق المعاجم العربية تحت مادة عثر ج ٢ ص ٩٥ عمود ١ — الطبعة الثانية سنة ١٩٢٧) ... ... »

عبد الرحمن بدوي

... انتهى خطاب الأستاذ عن هذه المسألة .

وإذن فأنت ترى — كرئيس تحرير لمجلة محترمة — ولا شك يرى معك القراء أنني لست ميجارياً في محاجتي كما وصفني تلميذنا زكريا ابراهيم ونحن لا ريب نفتح صدورنا لنقد تلاميذنا ، بل وأقول مخلصاً إننا نفرح به ونحثهم عليه ، ولكن على أن يكون في حدود اللياقة ؛ بل وخير من ذلك أن يكون في حدود الحقيقة والعلم الصحيح ، وذلك لأنني لا أرى سفسطة في دفاعي عن عثرت به التي أفادت المعنى الذي أردت العبارة عنه مع عدم خروجها عن أصول اللغات عامة بما فيها لغتنا

وإن كان هناك شيء أنكره من زكريا ابراهيم ، فهو عدم الأمانة العلمية ، لأن اليوم الذي نرى فيه طلبتنا يتصرفون في نص لكي يحاجوا أستاذهم محاجة في هذا المناد أعتبره يوم فشل لكل مجهوداتنا العلمية ويوم حزن لي لا يعرف مداه إلا الله

محمد منصور

حكم في القضية ١٤٠٥ عسكرية المنيا سنة ١٩٤٢ بمجلسة ٤ — ١١ سنة ١٩٤٢ بحبس محمد عبد النبي الديكي جزار أربعة شهور مع الشغل وغلق المحل ستة أيام وذلك لبيعه لحماً باكثر من التسعيرة

حكم في القضية ١٤٣٣ عسكرية المنيا سنة ١٩٤٢ بمجلسة ٤ — ١١ سنة ١٩٤٢ بحبس كل من حسن سيف ومحمد محمود جمعه بقالين بالاختصاص ثلاثة شهور شغل وجلد كل منهما ٢٠ جلده لبيعهما سكراً بازيد من التسعيرة

حكم في القضية ٦٩٦ عسكرية المنيا سنة ١٩٤٢ بتغريم محمد عثمان تاجر بالمنيا عشرة جنيهات بمجلسة ١٠ — ٦ — ٩٤٢ لامتناعه عن بيع أقشه بالسعر القانوني

حكم في القضية ٤٣٨ عسكرية المنيا ١٩٤٢ بتغريم مخائيل عبد الملاك يعقوب تاجر بالمنيا عشرة جنيهات والغلق لمدة خمسة أيام بمجلسة ٢٤ — ٦ سنة ٩٤٢ لبيعه قماش دبلان بازيد من التسعيرة

حكم في الجنحة العسكرية ٨٠٧ المنيا سنة ١٩٤٢ بحبس كل من ابراهيم جبرائيل وجرجس مخائيل بثلاثة شهور بالشغل والغلق خمسة أيام لحيازتهما شايا وسكراً أزيد من المقادير التي سمحت تجارتهما ولم يبلغا عن هذه الكمية وامتناعهما عن بيعها للجمهور بمجلسة ٢٤ — ٦ سنة ١٩٤٢